التعددية الدينية وحوار الأديان في المغرب[1]

د. محمد خروبات

(جامعة القاضي عياض بمراكش)

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فأجيب في هذا البحث عن ثلاث أسئلة محورية: **ما مفهوم التّعددية الدّينية؟ وما آفة معاكستها؟ وهل المغرب يتبنّى التّعددية الدّينية؟ وما مستقبل التّعددية الدّينية في المغرب في ظلّ التّحديات العامّة؟** ونقدم في الأخير تغطية تحليلية لزيارة البابا "فرنسيس" للمغرب بتاريخ: 30 و31 مارس 2019م، مع تقويم لهذه الزيارة في ضوء موضوع "التّعددية الدينية".

أولا: معنى التّعددية الدّينية وآفة معاكستها.

لن نقدم المفهوم على الطريقة اللّغوية أو الاصطلاحية، ولكنّنا نتناوله فكريا لأن طبيعة الموضوع هي طبيعة فكرية، وهي طبيعة تختزل الثّقافة والسّياسة والدّين، فمصطلح "التّعددية الدّينية" له صلة مباشرة بمصطلح "الحرية الدينية"، ذلك أن الحرية الدينية هي سبب رئيس للتّعددية الدّينية، أو لنقل: إن هذه الأخيرة هي نتيجة مفترضة للأولى، فهما يتبادلان جدلية السبب والنتيجة.

ومادامت القضية تخصّ المغرب، ومادام المغرب دينه الإسلام فإنّ الإسلام لا يلغي التّعددية الدّينية، لأسباب منها: أنّ الإسلام وجدها في جزيرة العرب، وجد اليهود والنّصارى والمجوس وعبدة الأوثان، ثم إنّها خصلة فطرية في الجبلّة البشرية، لذلك احترم وجودها ولم يحترم صلاحيتها، قدّر كينونتها ولم يضف عليها صفة المشروعية المطلقة ، يقول تعالى: "**لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين**"[2]، ويمكن أن نُقدم بين يدي الموضوع آيات كريمة هي بمثابة شعار لحقوق الإنسان في مجال التّدين منها قوله تعالى: **"لا إكراه في الدّين"**[3]، وقوله لنبي الأمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم: "**فذكّر إنّما أنت**

[1]- بحث ملحق بأعمال الندوة.

[2]- سورة الكافرون، الآيات (2-6).

[3]- سورة البقرة، الآية 256.

مذكّر، لست عليهم بمصيطر"[1]، ثم خاطبه الله تعالى بقوله: "ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعا، أفأنت تُكره النّاس حتى يكونوا مؤمنين"[2]، وعلى هذا الحال كان المجتمع الإسلامي الأول، لقد التزم بهذه المبادئ وانضبط لها، وتعايش النّاس في المجتمع الإسلامي وهم على أديان مختلفة.

ذكر محمّد بن إسحاق بأنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم لمّا دخل المدينة كتب "كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم"[3]، وجاء في بعض بنود هذا الكتاب: "وإنّ يهود بني عوف أمّة مع المومنين"، ثم عطف عليهم سائر القبائل اليهودية[4]، وكانوا يعيشون في أمن وأمان، يتحرّكون بكلّ حرية، يقول الله تعالى وهو يوصي عنهم: "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه"[5].

تلك بعض النصوص المنتقاة التي هي بمثابة شعار لحقوق الإنسان في مجال الاعتقاد والتديّن، جعلت هذا الدّين متميّزا على سائر الأديان والمعتقدات، كيف وهي وصايا إلهية صانت الكرامة الإنسانية، حين جعلت الإنسان يمارس اختياره الطّبيعي من دون إلزام ولا إكراه، وقد أثبتت الوقائع أن الإلزام لا يولّد الالتزام، فالإكراه على دين معين لا تتولّد معه القناعة بذلك الدّين، وإذا حصل فإن المكره يعيش مزدوج الشخصية، ويعيش معذّبا في حياته، وقد ينافق ليرضي قناعاته ويرضي في الوقت نفسه من يُجبره على ذلك، وأمام هذه الظاهرة نكون أمام النتائج الآتية ، الأحلى فيها مر:

- إما أن تسقط إنسانية الإنسان، وهذا يعني سقوط الإنسان في النّهاية.
- وإما سقوط من يمارس الإكراه عليه، لأن الإرادة الإنسانية في النّهاية لا تُقاوَم.

[1]- سورة الغاشية، الآية 21-22.
[2]- سورة يونس، الآية 99.
[3]- محمد بن إسحاق، السّيرة النبّوية 501/1، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، الطبعة الثّانية في مجلدين.
[4]- المصدر السابق، وانظر كتاب "الأموال" لأبي عبيد القاسم بن سلاّم 125/2 و 190/2-194، تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر، الطبعة الثّانية.
[5]- سورة التّوبة، الآية 6.

- وإما أن تستمر الوضعية على ما هي عليه ولا ينتج عنها سوى الأمراض النّفسية، والقلاقل والاضطرابات الاجتماعية والسياسية[1].

تقدم الأدّلة السّابقة حرية المعتقد على المعتقد ذاته، فقبل أن يعتقد الإنسان في المعتقد هو حرّ فيه، هذه الحرية هي حرية اختيار لا إجبار، فالعرب عبدوا الأصنام في الجاهلية بالاختيار، وتديّن بعضهم بالمسيحية بالاختيار، كما تديّن غيرهم باليهودية بالاختيار أيضا، وما زال الإنسان يتنقل من دين إلى آخر بالاختيار كذلك، لكن الإسلام جاء برسالة البيان والتّوضيح، فبعثةُ النّبي صلّى الله عليه وسلم جاءت لتبيّن للنّاس، وتوضّح لهم سبل الهدى والرّشاد، فتضعهم في حريتهم ليختاروا بين ما ينفع وما لا ينفع، وما يصلح وما لا يصلح، وهذا كلّه بعد بيان ما يصلح مما لا يصلح، وما ينفع مما لا ينفع، يقول تعالى : "**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها**"[2].

يجب التّمييز بين التّعددية الدّينية في الجغرافية الإسلامية وبين التّعددية الدّينية في الجغرافية غيرالإسلامية، فالكلام عن التّعددية في الوضعية الأولى ليس عينه الكلام عليها في الوضعية الثّانية، لأننا حين نقارن بين الوضعين فإنّ الكلام يختلف بينهما ، بحيث تظهر المزايا وتتعدّد الإيجابيات، والتّاريخ والواقع كفيلان ببيان ذلك، الدّولة في المغرب قديما وحديثا، وفي العدوتين حافظت على التّعددية الدّينية، ولم تمارس الاضطهاد أو الإقصاء الدّيني لسيادة الدّين الواحد، في حين هذا لم تحقّقه بعض الدّول التي قامت على العرقية والمركزية وأيديولوجية الدّين الواحد مثلما نرى في بعض البلدان اليوم، وقد سقطت الشّيوعية بسبب فرض أيديولوجية واحدة، وقبلها النازية.

ثانيا: المغرب يتبنّى التّعددية الدّينية.

لا يعني التبنّي هنا أنّ المغرب أقام دستور الدّولة على التّعددية الدّينية، بحيث يصبح التّعدد الدّيني ديانة رسمية، كلاّ، يعني التبنّي الفسح في المجال للتّعدّدية الدّينية مع جعل الإسلام الدّين الرسمي للدّولة، يظهر ذلك فيما يلي:

[1]- محمد أحمد مفتي، وسامي صالح الوكيل، النّظرية السّياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشّرعية: دراسة مقارنة، ص 20، كتاب الأمّة 25.

[2]- سورة الكهف، الآية 29.

1- ينصّ الفصل 22 من الدّستور على ما يلي: "لا يجوز المسّ بالسّلامة الجسدية أو المعنوية لأيّ شخص، في أيّ ظرف، ومن قبل أيّة جهة كانت خاصّة أو عامّة". ومعلوم أنّ التّعددية الدّينية تدخل في الحقوق المعنوية المشار إليها في هذا الفصل.

2- ينصّ الفصل السّابع من الدستور على ما يلي: "لا يجوز أن تؤسّس الأحزاب السّياسية على أساس ديني أو لغوي أو عرقي أو جهوي، وبصفة عامّة على أيّ أساس من التّمييز أو المخالفة لحقوق الإنسان". فتأسيس الحزب على أساس ديني يعني إلغاء التّعددية الدّينية، والفسح في المجال لتأسيس الأحزاب على أسس دينية هو فسح في المجال للتّمييز والفوضى، لذلك جاء المنع، والغرض من المنع هو التنظيم لا الحضر.

3- ومن أقوى الأدلة في الجانب التّشريعي ما نجده في المدونة الجديدة للأسرة، القانون رقم 70.03 حيث تتصدّر المادّة الثّانية منه هذا القانون، تُبنى هذه المادة على أربعة بنود كلّها تعترف بحقّ اللاّجئين وغير اللاّجئين بممارسة حياتهم وفق أحكام مدونة الأسرة.

4- مصادقة المغرب على عدد من الإعلانات والمواثيق والاتفاقيات الدّولية الأساسية المتعلّقة بحقوق الإنسان، منها وثيقة حقوق الإنسان في الإسلام الصادرة عن منظمة المؤتمر الإسلامي التي نصّت مادّتها الأولى على ما يلي: "البشر جميعا أسرة واحدة جمعت بينهم العبودية لله والبنوّة لآدم وجميع النّاس متساوون في أصل الكرامة الإنسانية، وفي أصل التّكليف والمسؤولية دون تمييز بينهم بسبب العرق أو اللّون أو اللّغة أو الإقليم أو الجنس أو المعتقد الدّيني أو الانتماء السّياسي أو الوضع الاجتماعي أو غير ذلك من الاعتبارات"، وهو إعلان ألزم جميع الأعضاء بتطبيق أحكامه، وذلك ما نصّت عليه المادة 28.

ثالثا: مستقبل التّعددية الدّينية في المغرب في ظلّ التّحولات:

يجعل البعض من "التّعددية الدّينية" مصطلحا يتلاعب بمفاهيمه الفلسفية والسّياسية، ولربما زجّ بالقراء إلى التّاريخ حيث البعد عن الواقع، كما أنّ البعض يجعل منه شعارا ليس إلّا. الكلام عن التّعددية شيء والممارسة السّياسية شيء آخر، لكن هنا في المغرب الأمر يختلف، "التّعددية الدّينية" هو مفهوم واقعي، وممارسة ميدانية في السّياسة الدّينية، أما الثّقافة المغربية فقد تتعدّد مفاهيمها وآراؤها بحسب تعدّد الرؤى والأيديولوجيات والمذهبيات، ونحن حينما نتكلّم في موضوع

التّعددية الدينية في المغرب فمن منطلق الممارسة السّياسية والقرارات الرّسمية لا من الأفكار الصحفية والكتابات المذهبية والأيديولوجية.

تَقَدَّم معنا أن المغرب يقرّ بالتّعددية الدّينية ويحترمها، ولا يسعى إلى مضايقتها بأيّ وجه من وجوه المضايقة، كما أنّ هذه التّعددية تخضع لأحكام القانون المعمول به في ظلّ دولة الحقّ والقانون، فهو إذن تعدّد منظَّم ومؤطَّر، لا يمكن لأيِّ فئة أن تستغله لمضايقة فئة أخرى، ويبقى مستقبل التّعددية الدّينية مستقرا ومنضبطا تحت مظلة "إمارة المؤمنين" التي يتميز بها المغرب كمرجعية ثابتة وضامنة لحقوق التّدين.

يُثار الكلام من هنا أو هناك على أنّ التّعددية الدّينية في المغرب تعرف تراجعا كبيرا، والواقع أنّ هذا التراجع يُقاس بقلّة عدد الدّيانات الموجودة في المغرب وضحالة نسبتها، فالمغرب لا يتحمّل مسؤولية هذا التقلّص، التقلّص راجع إلى طبيعة الدّيانات نفسها، فإذا نقص عدد اليهود مثلا فبفضل الهجرة إلى إسرائيل، وإذا نقص عدد النصارى فهذا راجع إلى المسيحية نفسها لا إلى الدّولة المغربية، وهكذا، أمّا إذا بُني هذا التراجع على المضايقة وعدم التّسامح الدّيني فهذا غير صحيح البتة لأن التّاريخ يثبت أن اليهود والنّصارى عاشوا مع المسلمين جنبا إلى جنب، في جو من التّسامح والتّساكن والتّجاور، هكذا كانوا في الأندلس، وهكذا أيضا عاشوا في المغرب.

أما التّحديات التي قد تواجه التّعددية الدّينية في المغرب فتُعزى إلى تحدّيات دينية وعقدية بالأساس، فالمغرب بلد منفتح، وثقافة التّشدد والتّطرف تكاد تغزو العالم كله ليس فقط من جهة الدّين الإسلامي بل من جهة كلّ الأديان الأخرى سماوية وغير سماوية، وإذا ما وقعت بعض المحاكمات لبعض الفئات من الأديان الأخرى فهذا راجع إلى الخروقات القانونية التي ترتكبها هذه الفئات في المغرب، وهي خروقات كثيرة ومتنوعة، وهؤلاء تشملهم المتابعة القانونية مثلما تشمل المسلمين المغاربة، فالقانون لا يفرق بين مسلم وغير مسلم في إطار دولة القانون، والمتابعات القضائية في إطار القانون إنما هي بسبب الجرم المرتكب وليس بسبب المعتقد كما يحاول للبعض أن يتأوّل، أو قد تُعزى لمطالبة بعض الفئات بخرق الثّوابت والأحكام التّشريعية والشّرعية فيبنون على "عدم زواج المسلمة بغير المسلم والمسلم بغير المسلمة ما لم تكن كتابية" كما تنصّ عليه المادة 39 من مدونة الأسرة على أنه مساس بالحقوق، وفيه إهانة للأقليات الدّينية الأخرى إلخ، أو الطعن في الفصل 220 من القانون الجنائي، وما جاء في هذا الفصل تمّ تأويله، ولم يوضع في سياقه، فالشطر الأول من الفصل يتعلق بإكراه الناس وإجبارهم على دين معين بالعنف والتّهديد، وهو حكم عام يشمل المسلم وغير المسلم، والشطر الثاني يتعلق بمعاقبة

كل من زعزع عقيدة المسلم بأيّ نوع من الأنواع الأخرى غير العنف والإكراه من الأفراد والمؤسسات، وهذا من حقّ الدّولة أن تحمي دينها، فالطّعن في هذه القوانين يبقى من دون مصداقية.

ومن تجلّيات مستقبل التّعددية الدّينية بالمغرب أن المغرب سمح بتأسيس "الجمعية المغربية للحقوق والحريات الدّينية"، عقدت هذه الجمعية مؤتمرها الأول في الرباط في 18 نوفمبر 2018م تحت شعار: "جميعا من أجل ضمانات قانونية وتشريعية لحماية وجود التّنوع الدّيني"، وقد ضمّ المؤتمر في صفوفه حتى الأشخاص المنتمين إلى أديان ومذاهب غير معترف بها.

رابعا : تغطية تحليلية لزيارة البابا فرنسيس الأخيرة للمغرب.

نستطيع أن نستلهم من الزيارة التّاريخية التي قام بها البابا فرنسيس إلى المغرب يومي 30 و31 مارس من سنة 2019م دلالات التّعددية الدّينية في المغرب، وما يتبعها من قيم التّسامح والتّعايش الدّيني، ثم الأوراش الكبرى المتعلقة بالشأن الدّيني والتي رسمتها هذه الزيارة. حيث انبثقت عن زيارة الباب هذه للمغرب، والتي كانت بدعوة من جلالة الملك ثلاث قضايا مهمّة: القضية الأولى الخطاب الملكي السامي، القضية الثّانية خطاب البابا فرنسيس ، والقضية الثّالثة نداء القدس.

ومن هذه القضايا الكبرى الذي أثمرتها هذه الزيارة يتبيّن أنّها لم تكن زيارة سياحية أو زارة مجاملة ودبلوماسية، بل كان لها أبعاد مهمّة يمكن للمحلّلين أن يتناولوها من زوايا مختلفة، لكنّ الزّاوية التي نريد التأكيد عليها هنا هي الزاوية الدّينية، فهي زيارة ذات طابع ديني تعطي لحوار الأديان والتّعايش السّلمي المشترك والتّسامح طابعا متميزا، وهي زيارة دينية لأنّها تجمع بين جلالة الملك بصفته أميرا للمؤمنين، والبابا فرنسيس بصفته أعلى سلطة دينية للمسيحية الكاثوليكية، وقد تُوجت بنداء القدس، وللقدس حرمة دينية، نحدد في المحور الأول مقتضيات خطاب جلالة الملك، ونعرض في المحور الثّاني لمضامين خطاب البابا فرنسيس، ونشير في المحور الثّالث لأهم ما جاء في نداء القدس، ونختم في المحور الرّابع بتقويم عام لكل ما تقدّم.

1 - مقتضيات الخطاب الملكي السّامي

نحدّد هذه المقتضيات في النّقط الآتية:

أ. نوّه جلالة الملك بالزّيارة، فالزّيارة لها رمز تاريخي وحضاري، لم تنقطع الزّيارة بين الكنيسة البابوية والمغرب منذ عهود تاريخية طويلة، كان آخرها زيارة بولس الثّاني سنة 1985م، وقد

أهّل الموقع الجغرافي للمغرب من أن يحتل مكانة مرموقة جعلته صلة وصل روحية وثقافية بين إفريقيا وأوربا.

ب. أكّد جلالته على أنّ حدث الزيارة شكّل حدثا استثنائيا، فقد جاء في لحظة زمنية تحتاج إلى تعزيز الحوار بين الأديان، وتطوير الخطاب الدّيني، وتجديده لمعالجة آفّة التّطرف.

ج. من الوسائل التي ذُكرت في الخطاب أن مواجهة التّطرف لا تكون بالمواجهة العسكرية أو بالمال بل بالتّربية وبثّ العلم الشّرعي، فالتّربية أساسية في تنشئة الأجيال على قيم التّسامح والاعتدال وقبول الآخر، والعلم يطرد الجهل لأنّ الذي يجمع الإرهابيين هو الجهل بالدّين.

د. من هذه الأحداث خيانة الرّسالات الالهية، والتّلاعب بالدّين، وتحريف معانيه السّامية، وبثّ خطاب الكراهية والنّفور من الآخر، وهي أمور توجد في كلّ الأديان، والأمر يقتضي المواجهة بكلّ الوسائل الممكنة، ولن يتأتّى ذلك إلّا بالتّعاون والتّشاور لمكافحة مدّ الغلوّ والتّطرف.

هـ. حثّ جلالة الملك في خطابه على أنّ المملكة المغربية تواجه هذا المدّ بتلاحم الشّعب المغربي بكلّ أطيافه وباختلاف معتقداته، وتوقّف عند إمارة المؤمنين بصفتها الراعي الأمين للتدين في المغرب، فهو مؤتمن على ضمان حرية ممارسة الشّعائر الدّينية، وهو أمير المؤمنين لكلّ المغاربة مسلمين وغير مسلمين.

و. لتحقيق كل ذلك ذكّر جلالته بالإنجازات الكبيرة التي حقّقتها المملكة لمواجهة هذه التحدّيات، منها مؤسّسة محمّد السّادس للعلماء، هذه المؤسّسة الّتي تسهر على تكوين الإنسان السّوي والراشد، المستقيم والمعتدل من خلال برامج علمية مدروسة، يسهر عليها علماء أكفاء منتدبين لهذا الغرض، الغرض من هذه المؤسّسة إعداد الإنسان الصّالح لدولة السّلم والتّسامح، وتزويد عدد من البلدان الأوروبية والإفريقية بالأئمة والمرشدين والمرشدات.

ز. إلى جانب ما تقدّم ذكر جلالته بالمبادرة الوطنية للتّنمية البشرية، وسياسة الهجرة، والانفتاح، وتأهيل المهاجرين وترشيدهم على أساس التّضامن والاندماج.

ح. حيَّا جلالة الملك القادة العرب الّذين لا يتهرّبون من مسؤولياتهم تجاه القضايا المصيرية للأمّة، والّذين هم حاضرين على الدّوام لمعالجة المشاكل ومواجهة التّحديات.

2- مضامين خطاب البابا فرنسيس.

وتتحدّد فقراته فيما يلي:

أ. أشاد البابا بالاستقبال الحار الذي خُصّص له من قبل جلالة الملك، وبرهن عن الحبّ والتّقدير المتبادل،معبّرا عن عميق الامتنان لما يبذله المغرب من ترسيخ الحوار والتّعايش السّلمي.

ب. أشاد بالحضارة المغربية العريقة الضّاربة في التّاريخ، والتي تجعل من المغرب قبلة للإنسانية من مختلف الأعراق والأديان، وأنّ التّاريخ العريق يُعطي للمغرب قوّة الصّمود في وجه التّحديات الجارفة.

ج.ذكّر بأنّ زيارته للمغرب هي اكتشاف جديد، وأنه يدخل في الحوار بين الأديان، وفي التّعارف المتبادل، وأنّ الأساس من هذه الزيارة هو البحث عن السّلام، ونبذ الغلو والتّطرف، ودعا إلى التّعاون بين المغرب وبابوية الفاتيكان لأجل بناء عالم أكثر تضامنا والتزاما، عالم يقوم على الحوار والتّعايش.

د. دعا في خطابه إلى تطوير ثقافة الحوار، ومجابهة التّطرف والأصولية وذلك بالرجوع إلى القيم المشتركة وإحياء المعاني الدّينية الحقيقية.

ه.أكّد على أهمية العنصر الدّيني في بناء الإنسان، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش من دون دين، كما أنّه لا يمكنه أن يمارس التدين بطريقة تسيء إلى التدين نفسه.

و.أكّد على أنّ الله تعالى خلق الكائنات البشرية متساوية، فلا بد من مراعاة الكرامة الإنسانية لكل كائن بشري.

ز.أشاد بالمنجزات التي حقّقها المغرب مثل المؤتمر الدّولي "**إعلان مراكش**" حول حقوق الأقليات الدّينية في الدّيار الإسلامية الّذي عُقد في مراكش سنة 2016م ، وذكر بمؤتمر مراكش حول المناخ COP 22 مشيرا إلى أنّ الأرض هي البيت المشترك الذي نعيش فيه جميعا.

ح.ذكّر بأزمة الهجرة والمهاجرين، ودعا إلى تضامن حقيقي لإيجاد حلول عادلة ودائمة، وأشاد بالمغرب وبدوره الإنساني الفعّال في استقبال المهاجرين وتأهيلهم، كما ذكر بجهود الكنيسة الكاثوليكية في المغرب من النّاحية الاجتماعية والثّقافية.

ط. وجّه البابا دعوته لانخراط المسيحيين واندماجهم في المجتمع المغربي، وهي دعوة أدخلت السرور على المسيحيين المتواجدين في المغرب.

3- نداء القدس

وقّع جلالة الملك والبابا فرنسيس نداء القدس، وهذه مجمل دلالاته:

أ. من حيث المرجعية، فلهذا النّداء وجاهته، فهو موقّعٌ من قطبين روحيين: جلالة الملك بصفته أميرا للمؤمنين، وبصفته رئيسا للجنة القدس، ثم إنّ القدس بالنسبة لجلالة الملك هي أولى القبلتين وثالث الحرمين، أما البابا فرنسيس فبصفته يمثّل أعلى سلطة دينية للمسيحية الكاثوليكية، فهو ينظر إلى القدس نظرة تقدير لكونها موطن مولد السيّد المسيح عيسى عليه السّلام وأمّه ، فقد وُلد في بيت لحم من أرض فلسطين .

ب. من حيث التوقيت، فالقدس لها رمزية خاصّة عند المسلمين وعند المسيحيين أيضا، وهي تمرّ من وضعية صعبة، فالفلسطينيون يعانون من المضايقات والحصار ومصادرة الأراضي والممتلكات، واعتراف أمريكا بجعل القدس عاصمة لإسرائيل بنقل سفارتها إليها زاد الطّين بلّة، وعقّد المشكلة عوض المساهمة في حلّها، وهو أمر استنكره العالم بأسره، ومنهم المغرب والفاتيكان حين دعى الفاتيكان قبيل نقل السّفارة إلى احترام الوضع القائم في القدس، والتحلّي بالحكمة والحذر.

ج. من حيث موضوعية النّداء، فالحدث هو حدث تاريخي متميز، أكّد النّداء على أنّ القدس لن تُنسى، ولن تُمحى من ضمير المسلمين والمسيحيين، وأن الفلسطينيين ليسوا وحدهم في السّاحة، وأن تقرير مصير الشّعب الفلسطيني هو الحلّ الناجح.

د. من حيث الخصوصية، أكّد الطرفان على المحافظة على الطّابع الخاص للقدس، وعدم تغيير معالمها الحضارية والدّينية، كما أكّد النّداء على البعد الروحي للقدس، ومكانتها كمدينة للسّلم والسّلام، فالسّلام الحقيقي منها يبدأ.

هـ. أكّد النّداء على رفع الحضر عن ممارسة الشعائر الدّينية، فالشّعائر حقّ مكفول لكلّ الأديان، فالقدس مهد الحضارات، ومهد الأنبياء والرّسل، ومهد الأديان السّماوية.

4- تقويم عام لكل ما تقدّم

بفعل هذه الزيارة فإنّ المغرب يقدّم درسا في الحوار الدّيني، وفي التّعايش السّلمي، وفي ثقافة التّسامح، وبحكم الموقع الجغرافي المتميز والّذي أهّل المغرب طيلة قرون لربط جسور التّواصل بين إفريقيا وأوروبا، وقد نضيف حتى آسيا، ذلك أن اكتشاف رأس الرجاء الصّالح جعل المغرب طريقا مفتوحة للأوروبيين إلى آسيا، وقد أثمر هذا الموقع عقد صلات وزيارات وشراكات بين أوروبا بصفة عامّة والمغرب بصفة خاصّة، فزيارة البابا للمغرب هي تتويج لهذا المسار التّاريخي ذي العلاقة المتميزة بين بابا الفاتيكان وجلالة الملك، وكلاهما يمثّل قطبا روحيا، فالبابا وإن كان ممثلا للكنيسة الكاثوليكية فهو ممثل لكلّ الكنائس، وجلالة الملك بصفته أميرا للمؤمنين ورئيسا للجنة القدس، ومن خلال الخطابين مع توقيع نداء القدس تتجلّى خطة العمل المشتركة، التي جوهرها تنفيد استراتيجية لحماية الأديان لتبقى على صفائها الرّوحي، وتلقين الأجيال قيم الوسطية والاعتدال وترسيخ عقيدة التّسامح والتّعايش المشترك سواء في المغرب الّذي فتح بابه للمهاجرين الأفارقة وللسّياح والمستثمرين الأوروبيين، أو في أوروبا الّتي تستقبل هي الأخرى المهاجرين الأجانب، وقد قدّم البابا فرنسيس نفسه شريكا في عملية السّلام وفي نبذ العنف والتّطرف، وفي المساهمة في التّخفيف من غلواء التّعصب المذموم، لقد وقف البابا بنفسه على المؤسّسات الدّينية التي تتولاّها إمارة المؤمنين لتكوين الأئمّة والمرشدين والدّعاة من المغرب ومن إفريقيا، وهي مؤسسات تتولّى تكوين الإنسان الصّالح لنفسه والمصلح لغيره، وذلك ببرامج علمية تُشبع العقل وتُغذي الرّوح في توازن متكامل.

لقد أثمرت هذه الزيارة أربع دلالات أساسية:

- الدّلالة التّاريخية: وتمثّل في ترسيخ الحوار المغربي الكاثوليكي الّذي لم يتوقّف منذ زمن طويل، جعلت من المغرب قبلة للزّائرين ومكانا تجتمع فيه الأمم لإيجاد حلول لمشاكلها المتفاقمة، وهو الأمر الذي ذَكَّر به البابا في خطابه.
- الدّلالة الحضارية: وتمثّل في ربط الجسور بين العالم المسيحي من خلال بابوية الفاتيكان والعالم الإسلامي من خلال إمارة المومنين في المغرب، وهو الأمر الذي جعل من المغرب مدرسة مفتوحة، فالمغرب لا يمكنه أن يعيش في معزل عن السّياق العالمي، والعالم اليوم أصبح قرية صغيرة، إذا وقع

حدث مأساوي في جهة تتأثر الجهات الأخرى، وأشكال الإدانة لا تكفي ما لم تكن متبوعة باستراتيجية معالجة الأزمات القائمة والتي يكون سوء الفهم والتّطبيق للدّين سببها في الغالب.

- الدّلالة الاجتماعية: وتتمثّل في تعبيد الطّريق للعيش المشترك لبناء مجتمع قوي ومتماسك، تتجاور فيه الأديان بكلّ حرية وتسامح سواء في المغرب أو في أوروبا.
- الدّلالة الثّقافية: وتتمثّل في فتح حوار ثقافي ومعرفي بين الأديان بُغية تفعيل العنصر المشترك بينها، والأمور الإيجابية التي جاءت بها، والمتمثّلة في السّلم والسّلام والأخوة الإنسانية، هذا العنصر هو الكفيل بإسعاد المسيحي إلى جانب المسلم والمسلم إلى جانب المسيحي، فالحروب الّتي تشتعل اليوم في فلسطين وكشمير وأفغانستان والشيشان وغيرها سببها الصراع الدّيني، والاعتداءات على المساجد والكنائس والمعابد تتمّ بسبب التّطرف الدّيني من كلّ الأديان، سماوية وغير سماوية، وهذا يعطي صورة سيّئة عن التدين كيفما كان، يجب تحرير التدين من المذهبية والطائفية والحزبية، يجب تحريره من الأيديولوجيات ومن سياسات المصالح.

إن الإنسانية اليوم تريد أن تسعد، وهذا هو الدور الذي تقوم به إمارة المؤمنين في المغرب، فالإسلام دين السّلام، وتحية المسلم السّلام، وقد استلهم جلالة الملك في خطابه حدث الهجرة الأولى إلى الحبشة، وكانت بأمر من النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ودعوته لقداسة البابا لزيارة المغرب والّتي تنبع من قوله تعالى: "**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله**"، ورسمت إمارة المؤمنين الثّوابت الّتي لا يحيد عنها التّدين في المغرب، وهي ثوابت تجعل من التدين مُوحَّدا، وبعيدا عن الغلو والتّطرف، هذه الثوابت هي: إمارة المومنين، ووحدة المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، وطريقة الجنيد السّالك، ومع أنّ هذه الثّوابت تخص المسلمين المغاربة فإنه لم يثبت أن اليهود والمسيحيين اشتكوا من المساس بحقوقهم العامة ومنها "حقّ التدين"، ولهذا السبب تُوِّج جلالة الملك محمّد السّادس بميدالية إليس آيلاند الشرفية لسنة 2019م، وهي مؤسسة أمريكية تعبّر عن جوهر القيم الأمريكية من خلال الاحتفاء والعرفان بالخصال الوطنية والتّسامح والإخاء والتّعاون، وقد مُنحت هذه الميدالية للمغرب في شخص جلالة الملك تعبيرا عن قيم التّسامح الذي تنهجه

المملكة، والاحترام والتّفاهم بين المغرب وأشقائه عبر أرجاء المعمور، وكذلك سياسة الهجرة ذات البعد الإنساني التي تنهل من قيم الانفتاح وقيم التّعددية الدّينية والثّقافية التي يتميز بها المغرب[1].

وضع الإنسان على الجادة هو ما يجب القيام به اليوم، فالرّحمة والتّسامح هما خميرة هذا الكون، والأيديولوجيات والمذهبيات تفرّق ولا توحّد بخلاف الدّين فقد جاء للتوحيد، توحيد الله وتوحيد عابديه، ولا يمكن للمسلم أن يعيش منعزلا عن العالم، وحتّى الإسلام لا تُفهم حقيقته إلا في ضوء الأديان السّماوية الأخرى، ولذلك كان حضورها قويّا في القرآن الكريم، وقويّا في أحداث السّيرة النّبوية الشّريفة.

[1] - هو تتويج مرموق يمنح لشخصيات أمريكية ودولية تعود مساهماتها الشخصية والمهنية والخيرية بالنفع العميم على المجتمع الدّولي، وقد ضمت قائمة المتوجين سبع رؤساء أمريكيين، تأسست مؤسسة إليس آيلاند سنة 1986م، ومقرها في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، المرجع : جريدة هسبريس الإلكترونية 14 مايو 2019م.